النص ؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لا تأخذه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوى ، إنما الرجعية فقط عند البشر ؛ ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ... (٢٢)﴾ [النساء]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه . فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذى يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)﴾

وهنا الهداية هي هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

ومادة الـ(م.ل.ك) يأتى منها « مالك » ، و« مَلِك» ، و«ملْك» ، ومنها «مُلْك» ، ومنها « ملكوت» ، و« الملْك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معَك ويملك غيرك ، فهذا هو المـُلك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . . . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت» ، و«عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك فى الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شىء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شىء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ؛ فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وفى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة :﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء المـلك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده : « الخير والشر » . وإنما قال فى كُلّ : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن : فحين يؤتى الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله فى الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له : لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعذبك حقاً ، وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا . إذن : فكلها خير .

﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً (١) ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخـذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله فى كل أموره لرقق عليه قلب مالكه . ولذلك يقول لنا فى الحديث القدسى : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى ، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعونى أعطفهم عليكم » .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادث له حكمة (٢) فى الوجود .

---

(١) الملك العضوض : هو ملك شديد فيه ظلم وقهر . وهى من صيغ المبالغة . والعضوض : جمع عضٍّ وهو الخبيث الشرس . وسُمِّى هذا الملك عضوضاً كأنه يعض الناس .

(٢) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم[1] ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون[2] ؛ وقلوبهم تمتلىء بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شىء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت ، فإياك أن تُفتَن فى غير خالقك أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يأتى لنا بالأمر الذى يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيى الجماد » ، و« يميت الحيوان» ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هى الحس والحركة التى نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » . قطعة من حديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف .

(٢) التربية هنا بمعنى التأديب والزجر ، وهذا ملمح دقيق جداً ، فالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور] .

هى ما أودعه الله فى كل ذرة فى الكون ، مما تؤدى به مهمتها ، ففى ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شىء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ... (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفى آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

إذن : فكل شىء قبل أن يكون هالكاً كان حياً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمى الهائل فى المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التى ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شىء فى الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أى حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ
وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ
مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ
تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهى أيضا رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان فى المعاصى بمجرد انحرافه مرة واحدة، وإذا استشرى فى المعاصى فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، وبمن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة .

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف [١] على النبى ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ ، فأى شىء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... (٤٣) ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبى ﷺ فى التخلف عن الغزوة [٢] ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً [٣] ... (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) العطف هو إشراك شيئين أو أكثر فى حكم ما .

(٢) هى غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وقد كانت فى شهر رجب عام تسع من الهجرة ، وقد كانت فى شدة حر وجدب وعُسْر بينما المدينة بها الظلال والأشجار وقد طابت الثمار ؛ ولذلك كانت امتحاناً عسيراً زلزل القلوب ، وتراوحت ردود الأفعال تجاه الاستجابة للنفس على حسب الإيمان الذى يسكن القلوب .

(٣) خبالاً : المراد : أصابوكم بالفساد والضعف والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء .

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة فى اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفىء مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام » . وأنت فى هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل فى منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه [1] .

وحين سمح النبى ﷺ لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا فى الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأى عمل ، إذن : فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبى الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له :

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...(١)﴾ [التحريم]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين . فقال : ما هذا؟ قالوا : لزينب . تصلى . فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : «حلوه . ليصل أحدكم نشاطه . فإذا كسل أو فتر قعد» . أخرجه البخارى فى صحيحه (١١٥٠)، ومسلمَ فى صحيحه (٧٨٤) .

والنبى ﷺ لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم [1] الأعمى يسأل رسول الله فى أمر من أمور الدين ، وكان ذلك فى حضور صناديد قريش [2] ، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيمانى ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول ﷺ الأمر الصعب الذى يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا فى الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تحرُّج [3] .

---

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . أما أمه أم مكتوم فهى عاتكة بنت عبد الله . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين . استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه فى الغزوات . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٥) .

(٢) صناديد قريش : عظماؤهم ، وعلية القوم فيهم . وهم هنا : عقبة بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والعباس بن عبد المطلب ، وقد كان يرجو إسلامهم . وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبى يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأساً ؟» فيقول : لا . ففى هذا أنزلت ﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢)﴾[عبس] أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٣١) وقال : حديث غريب . وابن حبان (١٧٦٩ - موارد الظمآن) .

(٣) وقد قال بعض العلماء : إنما ذُكر النبى ﷺ فى التوبة ؛ لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٠٤) .

وهذه المسائل التى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ويزيغ : يميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌ ، وليس عندهم رواحل [1] كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : «حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير». كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التى كانت فى نواياهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة [2] الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين [3] ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد

(١) رواحل : جمع راحلة ، وهى كل بعير قادر على مشقات السفر ، سواء كان ذكراً أو أنثى .

(٢) هو عبد الله بن خيثمة الأنصارى السالمى ، شهد أحداً ، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية . انظر الإصابة (٧/ ٥٣) وانظر (٤/ ٦٣) .

(٣) العريش : شىء يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظللة بسعف النخيل .

طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسَّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : "رسول الله فى الفيح - أى الحرارة الشديدة جداً - والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا فى ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير [(١)] ، والله ما ذلك بالنَّصَفَة لك يارسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ. فقال صحابة رسول الله : يارسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة » [(٢)] ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [(٣)] مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ [التوبة]

وفى واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال :

---

(١) وثير : ناعم . يقصد الوسائد والفُرُش التى فرشت داخل العريش .
النَّصَفَة : الإنصاف والعدل . زمام الراحلة : الحبل الذى يُقاد به البعير .

(٢) قصة أبى خيثمة وردت تامة فى السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق (٤/ ٥٢٠) وذكر ابن هشام أبياتًا لأبى خيثمة فى هذا :

لمـَّا رأيتُ الناسَ فى الدِّين نَافَقُوا ... أتيتُ التى كانتْ أعفَّ وأكرمَا
وبَايعتُ باليُمْنى يَدِى لمُحَمَّدٍ ... فلَمْ أكتَسِبْ إثْمًا ولم أغشَ محرمًا
تركتُ خَضِيبًا فى العريشِ وَصِرمةً ... صَفَايا كرامًا بُسْرُهَا قد تَحمَّمَا
وكنتُ إذا شكَّ المنافقُ أسْمَحَتْ ... إلى الدين نَفْسى شَطْرَهُ حيثُ يَمَّمَا

خضيباً : المرأة قد خضبت يديها بالحناء . صرمة : مجموعة من النخل .
صفايا : قد تحملت بالتمر . بسرها : التمر قبل أن يطيب .
تحمما : أى : أخذ فى الإرطاب ؛ فاسود .
وقد ورد قوله ﷺ : « كن أباخيثمة» فى حديث توبة كعب بن مالك عند مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

(٣) العسرة : من النفقة والظهر والزاد والماء .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ...(١٠٦) ﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : ما بَتّ الله سبحانه فى أمرهم بشيء ؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتى أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتى قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة [1] الذين خلفوا ، فى قوله سبحانه :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر فى غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار .

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذى يجلس فيه ، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك [(١)] . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق فى كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذى يحيطهم قد عَمّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتوانى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك [(٢)] يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر [(٣)] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه .

---

(١) ينفك : يتخلص منه الإنسان . ومنه « فك الرقبة » أى: تخليصها من العبودية والرق . قال ابن الأعرابى : فك فلان أى خلص وأريح من الشيء . [لسان العرب - مادة : فكك] .

(٢) كان كعب بن مالك يجالد الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقد لزما بيتيهما ، أما هو فيقول : « كنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

(٣) تسوَّر : تسلّق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] .

وبعد ذلك يتصاعد الأمر فى عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم[1] هكذا بلغ العزل[2] مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً فى المجتمع ، ثم فى الأقارب ، ثم فى خصوصيات السكن وهى المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك فى أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها: «ولكن لا يقربنك». قالت: والله يا رسول الله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له: اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك.

قال: إن هلالاً رجل شيخ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب ؟ والله لا أذهب له أبداً.

وظل الثلاثة فى حصار نفسى ومجتمعى لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفى هذا تمحيص[3] لهم ، فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً : «لم أكن قط أقوى ولا أيسر منِّى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة» . أى : أنه لم يكن له عذر يمنعه .

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتى واحد من جبل سَلْع

---

(١) وفى هذا يقول كعب : « حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها » .

(٢) وهو ما يسمى بالعزل العام اجتماعياً وأسرياً ونفسياً .

(٣) تمحيص : ابتلاء واختبار وتخليص من الذنوب . وقد بلغ البلاء مداه بكعب أن ملك غسان بعث له كتاباً يقول له فيه : « قد بلغنا أن صاحبك - يقصد محمداً - قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » . فألقى به كعب بعد قراءته فى النار .

فيقول: يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك.

قال كعب: فلم أجد عندي ما أهديه له لأنه بشّرني إلا ثوبيّ فخلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ.

وقال: يا رسول الله ، إن من تمام توبتي أن أنخلع من مالي - الذي سبَّب لي هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ[1].

إذن: فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأسوة لغيرهم . فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق:

﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ[2] مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ...(١١٨)﴾ [التوبة]

أي : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه. كيف ؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ[3] إلى الله ليحميك من الله ، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال في أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات. وفي الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال في هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال ، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

(١) فقال له رسول الله ﷺ : «أمسك بعض مالك فهو خير لك». فقال كعب: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. والحديث بطوله أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤١٨) ومسلم(٢٧٦٩).

(٢) ملجأ : المعقل والملاذ والمجير.

(٣) اللجوء يكون إلى صفات الجمال للحماية من صفات الجلال ، وهنا يكون اللجوء إلى الله ليحميك من الله.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: «أعوذ بك منك»[١]

أى: أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحمينى من صفات جلالك إلا صفات جمالك.

ولذلك حينما جاء فى الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ:

« فإذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة » .

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلّى الجبّار بالمغفرة ؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : «يتجلّى الغفّار» ؟ ونقول : لا ؛ فإن المغفرة تقتضى ذنباً ، ويصبح المقام لصفة الجبار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها ، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحق وحدك ، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك. هذا هو معنى : «يتجلى الجبار بالمغفرة».

وقد سمع الأصمعى[٢] - وهو يطوف - مسلماً عند باب الملتزم، يقول: اللهم إنى أستحى أن أطلب منك المغفرة ؛ لأنى عصيتك ، ولكنى تطلَّعْتُ فلم أجد إلهاً سواك.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك[٣].

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ،فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢) الأصمعى: هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى ، أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، مولده ووفاته فى البصرة عن ٩٥ عاماً ، وتوفى عام ٢١٦ هـ . الأعلام للزركلى (٤/ ١٦٢) .

(٣) ومما يروى أيضاً عن الأصمعى فى نفس هذا المعنى أنه سمع أعرابياً يدعو الله وهو يقول : هربت إليك بنفسى ، يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب ، أحملها على ظهرى ، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتى بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون ، وأمَّل فيما لديه الراغبون. انظر : الأمالى لأبى على القالى (١/ ٣٢).

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ والتوبة أولاً - كما عرفنا - هى تشريعها ، ثم تأتى التوبة بالقبول ، وقوله : ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أى : أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

ويُنهى الحق الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وساعة ينادى الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا [1] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب فى إيمانه ، فيطلب منه الحق «دوام الإيمان». فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالإيمان، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة]

(١) وهنا يقول العارف بالله : إن الإيمان إما أن يطلب على جهة الهداية ، وإما على جهة الدلالة ، وإما على جهة المعية ؛ فإيمان الهداية بالإدراك ، وإيمان الدلالة بالانفعال مع المدركات ، وإيمان المعية بالاختيار ، فالنداء إذا تكرر مطلوبه فهو مقامات إيمانية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

وكلمة ﴿اتَّقُوا﴾ تعنى: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض: هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية ؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون فى معيَّة الله . وهنا تأتى ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال . إن قوله سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعنى: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]

لأن النار من جنود صفات الجلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال.

وهنا يقول الحق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وفسر بعض العلماء قوله : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بمعنى كونوا من الصادقين ، أى : أن «مع» هنا بمعنى «من» والمقصود أن يعطى هذا القول معنى إجماليّاً عامّاً. لكنى أقول: هناك فرق بين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و«كونوا من الصادقين»، فقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: التحموا بهم فتكونوا فى معيّتهم ، وبعد أن تلتحموا بهم يأتى الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

ويقتضى الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأىُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هى نسبة ذهنية ، مثل قولك : «محمد زارنى» ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها ، وهذه «نسبة ذهنية». ومن يسمعك لا يدرى بها، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذى تدرى بها، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛ علم أن نسبة ذهنية جاءت فى ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية. فحين قلت : «محمد زارنى بالأمس»؛ جاءت فى ذهنك قبل أن تقولها، فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛ نسبة سمعها عن نسبة عندك.

وحين يمحّص السامع هذا القول ؛ يعلم أن هناك واحداً فى الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن:

فالصدق [١] هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع. أما إذا قلت : إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر، فهذا يعنى أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب. إذن: فهناك «نسبة ذهنية» و«نسبة كلامية» و«نسبة واقعية». فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية، فذلك هو الصدق، وإن لم تتطابق يكون الكذب.

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة، والفيصل فى هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما تقول مع الواقع أم لا ؟ . أما إن قلت لك: «زُرْ فلاناً» فهذه نسبة إنشاء ؛ لأن الواقع يأتى بعدها ، لا قبلها.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ والصدق هو الخَلَّة [٢] التى تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك فى قصة الرجل البدوى الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ، إن فىَّ خلالاً ثلاثة لاأقدر على التخلِّى عنها أبداً ، أما الأولى فهى النساء، وأما الثانية فهى الخمر ، وأما الثالثة فهى الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله ، لتختار لى خصلة [٣] من الثلاثة وتقوِّينى عليها، وأعاهد ربنا عليها. فاختار رسول الله ﷺ للأعرابى أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلّى بالصدق ، فقال له : كن صادقاً وما عليك. وحين أحب الأعرابى أن يشرب كأس خمر ؛ تساءل : وماذا إن سألنى النبى ﷺ أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ، قال لنفسه : « وماذا إن سألنى ﷺ وكيف أخزى نفسى بصفة لا تليق بمسلم ؛ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذّب سلوكه . وحين سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم.

---

(١) أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع فهو الصدق ، وإذا خالفت النسبة الكلامية الواقع كان الكذب ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة والمنطق .
(٢) الخلّة : الصفة والخلُق ، جمعها خلال .
(٣) الخَصْلة : الخَلّة والصفة . جمعها خصال وخَصَلات .

فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال: لا [١]. لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، وهكذا تجد أن الصدق هو «رأس الأمر كله».

وقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أفعالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه:

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف]

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ [٢] أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... ۝١٧٧ ﴾ [البقرة]

ولننتبه إلى الملاحظ الدقيقة فى هذه الآية، فقد قال الحق هنا: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ... ۝١٧٧ ﴾ [البقرة]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ ؟ أقول : لقد ذكر الحق هنا المال الذى ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً، فهذا فوق الواجب [٣].

ثم يقول سبحانه:

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .
(٢) البر : هو الخير والإحسان ، وهو الإيمان الصادق وفعل الخيرات .
(٣) الزكاة فرض ، وإيتاء المال تصدقاً : فضل ، والخير لمن جمع بينهما .

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [1] وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة]

هذه هي صفات من صدقوا، وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد صدقوا واتقوا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء الحق بصفة «الصدق» هنا؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلّف عن الغزوات، وكذب في الأعذار التي افتعلها؛ لذلك يأتي التوجيه السماوي أن ادخلوا من باب الصدق [2].

يقول الحق بعد ذلك:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ [3] وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

(١) البأساء: أي: في حال الفقر. الضراء: في حال المرض والسقم. حين البأس: في حال القتال ولقاء الأعداء.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخاري في صحيحه (٦٠٩٤).

(٣) الظمأ: العطش. والنصب: التعب. والمخمصة: المجاعة. يطأون: يدوسون.

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أي : أنك تنفي القدرة على الفعل ، أما إن قلت : «ما ينبغي» أي : عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله .

وهنا يقول الحق : ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله ﷺ في الغزو .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ وهنا حديث عن نوعين من الأنفس : أنفس من قالوا بالتخلف ، ونفس رسول الله ﷺ ، وأنت إذا قلت : «رغبت» ، معناها : أنك ملتَ ميلاً قلبياً ، فإن قلت : «رغبت في» كان الميل القلبي إلى ممارسة الفعل وفيها التغلغل ، أما إن قلت : «رغبت عن» وفيها التجاوز ، هذا يعني أن الميل القلبي يهدف إلى الابتعاد عن الفعل . إذن : فحرف الجر هو الذي يحدِّد لون الميل القلبي .

وقوله الحق : ﴿ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي : أنهم زهدوا في أمر صدر عن رسول الله ﷺ وفضَّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ﷺ ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك ؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله ، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليكم من نفوسكم [1] .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضي الله عنه لما سمع أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» [2] ، فقال : يا رسول الله ، أنا أحبك عن أهلي وعن مالي إنما عن نفسي ، فلا .

(١) عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » أخرجه البخاري في صحيحه (١٦) ومسلم (٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٣٣) وفي إسناد أحمد ابنُ لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقي الحديث هنا مروي بالمعنى .

وهكذا كان صدق عمر رضى الله عنه ، فكرر رسول الله ﷺ القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فعلم عمر أن رسول الله ﷺ حازم فى هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة، إنما هو حب العقل، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل ؛ فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتى بالتكليف.

وعلى سبيل المثال: فأنت تحب ابنك بعاطفتك، حتى وإن لم يكن ذكياً، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكياً وأميناً وناجحاً. وضربنا المثل من قبل وقلنا: إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب فى العافية ، وإن لم يجده فى الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتى له به من البلاد الأخرى.

إذن: فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا ؛ لأن هذا يناقض إيمانهم فى أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا فى رسول الله ﷺ عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله ﷺ إنما يأتى لهم بالخير[1] .

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتى لهم بالشرور ،

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] . أى : يُحيى دينكم وقلوبكم . وقد روى البخارى فى صحيحه (٤٦٤٧) عن أبى سعيد بن المعلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى . فقال ﷺ : « ألم يقل الله عز وجل : (ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ثم قال ﷺ: لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ، فذكرت له فقال ﷺ : هى الحمد لله رب العالمين ، السبع المثانى ».

وإن جاء لهم بخير فخيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله ﷺ عن أنفسهم يأتى لهم بالخير الثابت الدائم الذى يتناسب مع قدرة الله سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى حيثيات الترغيب التى يأخذون بها الجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم فى جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفى الماء الذى فى معدته ليبُلَّ ريقه، وريق زملائه .

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ والنَّصَب : هو التعب ، وكانت الغزوة فى جو حار مرهق .

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أى : المجاعة، وقد كانوا يأكلون التمر الذى أصابه الدود، والشعير الذى انتشر فيه السوس . وإن كانوا قد عانوا من كل ذلك فهو فى سبيل الله القادر على أن يمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه فى سبيل نصرته .

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التى يملكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن : فهم حين يطأون موطئاً، فهذا يغيظ الكفار .

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ أى : يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى : أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطىء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً . كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يخدده الحق : ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ .

إذن : فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد

خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه من عمل صالح جزاءً لكل حادث قابله مَنْ خرجوا مع الرسول ﷺ[1].

ويُنهي الحق سبحانه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً.

ثم يأتي بأحداث أخرى غير الظمأ والنصب والمخمصة ووطء الموطىء الذي يغيظ الكفار ، والنَّيْل من عدو الله نيلاً ، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

كل شيء - إذن - محسوب، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا الوديان ليلحقوا برسول الله ﷺ في غزواته، فالله سبحانه يكتب لهم الخير. وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين ؛ ليلحقوا بالسرايا التي يبعثها رسول الله ﷺ لنشر الدعوة.

وجاء قول الحق:

---

(١) هذه الآية تقتضي وجوب النفير على آحاد المسلمين ، وقد قال بعض العلماء : إنها منسوخة بالآية الآتية بعد ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً .. ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة] . وقال قتادة : كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ، فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقال آخرون : إنها محكمة . قال القرطبي : قول قتادة حسن ، بدليل غزوة تبوك . انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٣٢١٧) .

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد في قوله سبحانه:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ [التوبة]

كانت تلك هي الحيثيات التي ترغّب الناس في الجهاد ترغيباً يخرجهم عمّا ألفوا من العيش في أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ؛ لأن الثمن الذي يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية.

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغّب في الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول الله ﷺ يستقبل وحي الله.

واستقبال وحي الله يقتضي وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة في الجهاد ، فبيَّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه في الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحي بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحي بماله ، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التي يبذل في سبيلها الغالي والرخيص .

لكن يبقى أمر آخر ، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام ، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس ، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعني الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحي به الله .

إذن : فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولا ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً ؛ ليسيحوا به في البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هي استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون ؟

إذن : فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين : أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام [1] بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد في سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ لتستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ .

---

(١) لأن الجهاد في سبيل الله لملاقاة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حال الدعوة ، أما الجهاد الإعلامي فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول ما دام هناك باطل يناهض حقاً .

وساعة تسمع «كَانَ» منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أى : ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أى : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد.

و﴿كَافَّةً﴾ مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول: «أريد أن أكفّف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب، إذن: فمعنى كلمة ﴿كَافَّةً﴾ : جميعاً.

ولنا أن نتساءل: لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول: نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله فى الأرض ، ولكن الذى يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتى فى زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ.

إذن: فلا بد من أناس يسمعون وحى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض[1] جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ وفى هذا نفى أمر فيه انبغاء أى : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ فى أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوىّ يسحر ، وكان فى هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

---

(١) إن الإعلام الدينى هو جهاد له صفة الاستمرارية ؛ لأنه وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتنظيم فوضى الأرض، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتمادى فى الباطل لطمس معالم الحق. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... (٦٩)﴾ [يس]

أى: أنه ﷺ كان يستطيع أن يتفوق فى ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغى له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً ﷺ مُرْتاض [1] على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجىء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة، ولم يسمعوا منه شعراً، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد.

وقوله الحق : ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أى: لا يصح أن يكون هذا الأمر، رغم استعداد محمد ﷺ لذلك، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون القول؛ ولذلك حينما قال أناس: إن القرآن من عند محمد، جاء القول الحق مُبلِّغاً محمداً:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. (١٦)﴾ [يونس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة.

ومن الذى يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أى: فى العقد الثانى من العمر، ولا أحد يؤخر ظهور عبقريته.

---

(١) مرتاض : أى معتاد على قول الشعر ، قد ذللت له القوافى والبحور والأوزان واللغة لينظم ما شاء ، وهذا لا ينبغى لرسول الله ﷺ ، وإلا كان موضع طعن فى القرآن.

١

إذن: فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترغيب فى الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول الكريم محافظة على أمرين ؛ أمر استقبال وحى الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتنوع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تُعلِّم وترسل ؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً ، فكيف يصل الوحى من الرسول ﷺ إلى المؤمنين ؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً فى المدينة فمن الذى يسيح فى الأرض معلِّماً الناس ؟ أما إذا بقى الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فى فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف ؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط.

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه ؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحى من الله موجود معهم ، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود.

إذن: فالمشكلة كانت فى حالة عدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله ﷺ فى المدينة ، فعليهم أن ينقسموا قسمين: قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال.

حين كان الرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوة ، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية بـ «السَّرِية»[1] .

(١) كان عدد الغزوات التى خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازياً سبعاً وعشرين ، وقد قاتل بنفسه فى تسع منها ، هى : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف . وبلغ عدد بعوثه أو سراياه سبعاً وأربعين ، وقيل : بل نحواً من ستين .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة [(١)].

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتى تحدث فى الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمى تلك المعركة بـ «السَّرية» بل هى غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً.

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فى المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان فى القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه [(٢)]، أى : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ.

وهى الحملة القتالية الوحيدة التى خرجت بهذه التعليمات، من بين مثيلاتها من الحملات المحددة التى لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال.

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ فى المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال: أخذ الراية فلان

(١) هى غزوة مؤتة ، ومؤتة هى قرية من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال : « أمَّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد ابن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب ، فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا ما فى جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية » .

فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتل . ثم قال: وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقصّ المعركة [1] وهو في المدينة فقالوا: لم يقل ذلك إلا لأنه شهد.

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس في المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا: شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله ﷺ فهي غزوة.

ونعود إلى الآية التي يقول فيها الحق:

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ... (١٢٢)﴾ [التوبة]

وساعة تسمع كلمة «لولا» فلك أن تعرف أن في اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، فـ «لو» و«لولا» و«لوما» و«هلاَّ»، هي - إذن - ألفاظ واردة في اللغة ، وإذا سمعت كلمة «لو» فهذا يعني أن هناك حكماً بامتناع شيئين. شيء امتنع لامتناع شيء ، مثل قولك: «لو كان عندك زيد لجئتك» وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجيء زيد ، فكلمة «لو» حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جئتني في بيتي لأكرمتك. إذن: فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت.

وتقول: « لولا زيد عندك لجئتك» أي: أنه قد امتنع مجيئي لك لوجود زيد. إذن: فـ «لولا» حرف امتناع لوجود. ونلحظ أن «لولا» هنا جاء بعدها اسم هو «زيد» ، فماذا إن جاء بعدها فعل، مثل قولك: «لولا فعلت كذا» ؟ هنا يكون في القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق:

﴿لَّوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا (١٢)﴾ [النور]

---

(١) عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عينيه لتذرفان ، ثم أخذها خالد من غير إمرة ، ففتح الله عليه ، وما يسرني أنهم عندنا - أو قال: ما يسرهم أنهم عندنا . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦٢) وأحمد في مسنده (٣/ ١١٣) .

ومثل قوله: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... (١٣)﴾ [النور]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)﴾ [الحجر]

وأيضـا قولك: «هَلاَّ». فـهى أيضـاً تحضيض مثل قولنا : «هلا ذاكرت دروسك» ؟ وأنت بذلك تستفهم بـ (هل) ، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ) ؛ لتحثه على المذاكرة . أو قولك: «هلا أكرمت فلاناً ؟» وفى هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً [١].

والأسلوب هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقـول لهم : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ ثم يأتى الحث على أن ينقسموا إلى قسمين فى قوله : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثانى يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل منهج السماء.

وقـوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة ﴿نَفَرَ﴾ وهى من النفور . لكنها استعملت دائماً فى مسألة الخروج للحرب ، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ [٢] إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا ... (٣٩)﴾ [التوبة]

ولماذا يجىء الحق بالنفرة فى الجهاد ؟ نقول: لأن الذى يعوق الإنسان عن

(١) الأدوات الثلاثة (لولا - لوما ، هلاَّ) لا يليها إلا المضارع ظاهراً أو مقدراً . فإن دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل ، بشرط أن تفيد التحضيض . ومنها الآية التى معنا ، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ... (١٠)﴾ [المنافقون] وانظر : النحو الوافى لعباس حسن.

(٢) اثاقلتم : تثاقلتم وأخلدتم إلى الأرض ، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم . انظر : لسان العرب.

الجهاد حبه لدَعَته[1] ، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وفي ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذى يملكه ، ويذهب للثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد فى أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذى يجعلنى أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد، ولتبقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحي، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التى تتفقه فى الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله فى المدينة ؟

ونجيب: إن قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ نجد فيه كلمة ﴿فِرْقَةٍ ﴾ وهى الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف. مثلما نسمى فى الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة» ، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى : «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التموين» و«الشئون المعنوية» ، ونجد كلمة ﴿طَائِفَةٌ ﴾ وهى تعنى «بعض الكثرة»[2] .

---

(١) الدَّعَة : ترف العيش والراحة .

(٢) الطائفة : الرجل الواحد إلى الألف . والدليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجمع قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... (٩) ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... (١٠) ﴾ [الحجرات] .

وما دام الحق قد قال: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين ، إحداهما تنفر ، والأخرى تبقى لتتفقه فى الدين. إذن : فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائى كل ينفر لمهمته.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه ، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه ، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحى ، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول فى المدينة ، والقتال ، وكل طائفة تؤدى مهمتها.

وهناك من العلماء من رأى رأياً آخر ، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها ، وقال : إن من بقى مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة ، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علماً جديداً ، يتبادله مع المقاتلين فى ساحة القتال بعد أن يعودوا ، فالمقاتلون فى ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة ، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة ، وتهدم العدو ، والمعجزات التى رأوها من رسول الله ﷺ كنبوع الماء من بين أصابعه فى حال قلة المياه عند العطش [1] .

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقى العلم أخبار الوحى والفقه، وهكذا يتكافأ المؤمنون فى المهام ، وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد ، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد ؟ نقول: إن الجهاد إعلام بمنهج الله فى الأرض،

(١) قيل لجابر بن عبد الله : كم كنتم يوم الشجرة ؟ قال : كنا ألفاً وخمسمائة ، وذكر عطشاً أصابهم ، قال : أتى رسول الله ﷺ بماء فى تور ، فوضع يده فيه . فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، قال : قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا . كنا ألفاً وخمسمائة . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١١٥) .

والإعلام بمنهج الله فى الأرض يقتضى المنهج المعلوم من السماء الذى يوضح مصير المجاهدين، ومصير المتخلفين. وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ أى: يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التى حول المدينة ؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأيضاً أن يأتى آخرون من البلاد الأخرى لِيَعْلَمُوا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم.

ويكون قول الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ؛ ليجلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا ، ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان.

إذن: فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله ﷺ ، فهو ﷺ يعلّم من يأتون إليه من أى مجتمع ؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال.

إذن: تكون النفرة للتفقه فى الدين على أى معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه ؛ لتعلّم الطائفة التى تجاهد ، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات و بالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التى لم تخرج للقتال.

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ ، وقد سماها الحق «نفرة» ؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه ، وهى نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزّل من الله.

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هي الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبي قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة في أنه ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم في الدين ، ويؤدي البلاغ عن رسول الله ﷺ .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا: إن الذي نفر ليس فرداً من الفرقة، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة .

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة في أي بلد متقدم ؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب، ويلهو، فهو لم يحقق النفرة. لا بد إذن من أن يستوعب كل واحد في البعثة أنه قد جاء للتفقه [1] .

والفقه في اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أي أمر تفهمه : فقهتُ الأمر

(١) لطلب العلم والتفقه آداب ، منها : أن يكون لوجه الله ، لا لطلب سمعة أو غيره ، فعن كعب بن مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، ويعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٤) ، والحاكم في المستدرك (١ / ٨٦) شاهداً ، وابن أبي الدنيا في الصمت (حديث ١٤١) والعقيلي في « الضعفاء الكبير » (١ / ١٠٤) . فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه .

الفلانى . فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه فى الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».

إذن: الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحًا يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : «الفقيه» إلا لمن فَقُه. وهناك فرق بين فَقِه وفَقُه . فَقُهَ فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة : الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاولة أى عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه. وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ: «فهم شيئاً». أما فَقُهَ فمعناها: صار الفقه عنده مَلَكة.

وقوله الحق : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أى: ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم: من بعد ذلك مَلَكَة عندهم.

ولكنْ ماذا إن نفروا لشىء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته: إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون: نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم. لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هى التفقّه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لايطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، ولينذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى: يتجنَّبون مايضرُّهم.

وحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة فهى ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ ليشار إليه بالبنان مثلا [1] ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى. ولنا أن نتساءل : لماذا - إذن - جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله.

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتعَلَّم وتعلِّم [2] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

(١) البنان : الأصابع . مفردها بنانة . ومنه قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة] قال الفارسى : أى : نجعلها كخف البعير فلا ينتفع بها فى صناعة . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) ففرقة التعليم والتعلم هى ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوى ، والتوجيه المعنوى أساس الانطلاق الإيمانى نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته .